الاستشراق يُبعث حيّاً

أحداث لندن والثقافة الغربية السائدة

. سري المقدسي .
ترجمة: سماح إدريس

طلبت الآداب من البروفسور سري المقدسي أن يَكْتب لها مقالاً عن تداعيات تفجيرات لندن الأخيرة (٧ تموز) على الساحة الثقافية الغربية، بعد أن كان قد نَشَر في ٢٩ تموز ٢٠٠٥ مقالاً قصيراً، لكنْ باهراً، في لوس آنجلز تايمز، عن تلك التفجيرات، بعنوان «وحشيّةٌ ترتدّ إلى نَحْرِ صاحبها» (أو «على نفسها جَنَتْ براقش!»).

في مقال لوس آنجلز تايمز يَسْخر المؤلّف من «أخلاقية» الإدارتيْن الأميركية والبريطانية التي تَقْتل «بالسلاح اللامع والثياب الجميلة»، وتتنكّر بلغة «القضايا الكبرى.» ويَرْفض زعمَ الإدارتيْن عدمَ وجود رابط بين تلك التفجيرات والحرب على العراق. وبسبب هذا المقال تلقّى المقدسي عشرات الرسائل الشاتمة والمهدِّدة التي يتحدّث عنها في مطلع الدراسة أدناه.

والمقدسي هو أستاذ الأدب الإنكليزي في جامعة كاليفورنيا (لوس آنجلس)، وله أبحاثٌ هامة في الأدب الإنكليزي، والعولمة، والحداثة، والظاهرة «الحريرية»، وعشرات الموضوعات الأخرى. وقد سبقَ أنْ قدّمته الآداب في نهاية العام ٢٠٠٣ عبر دراسة ممتازة عن الراحل الكبير (وهو خالُه أيضًا بالمناسبة) البروفسور إدوارد سعيد.

الآداب

اقتباساتٌ... لا فكرٌ أصيلٌ

«إذن، ما رأيكَ، عن جدّ، في تفجيرات لندن، يا شَقْفة خرى يا كذّاب؟ هل رَسَمَتِ البسمةَ على وجهك المنْيِ...؟ هل جَلَبَت السعادةَ إلى قلبك؟ أمْ هل خاب أملُك لأنّ قليلاً من الكفّار فقط قُتلوا؟»

تلك كانت السطورَ الأولى من إحدى رسائل الكراهية التي تلقّيتُها [بالإنجليزية] بعد أن نَشَرْتُ مقالاً في **لوس آنجلس تايمز** أَشْجب فيه تفجيراتِ لندن التي حَدَثتْ في ٧ تموز، وأَشْجب فيه أيضًا الرُّدودَ المجنونةَ التي أَعْقبتْها في الولايات المتحدة والمملكةِ المتحدة.[1] والحال أنّ المقابلة السّطحية ما بين «الحضارة» الغربية و«الهمجية» الإسلامية، كما يَسْتحضرها بوش وبلير بشكلٍ رتيبٍ، قد حَجَبتْ حقيقة أنّ **طرفيْ** هذا النزاع المزعوم قد تصرّفا همجيّاً. والهمجية تولِّد الهمجية، على ما أشرتُ في مقالتي الآنفة الذكر، مقتبسًا قولاً لطوم پاين. لقد آن أوانُ أن نكون بشرًا، وأن نتصرّف كأناسٍ عاقلين لا كحيوانات بلا عقل؛ فاستخدامُ العنف ضدّ الآخرين لن يَجْلب إلاّ عنفًا متزايدًا بدوره.

وواصَلَ صاحبُ الرسالة المذكورة قولَه:

«أنتَ واحد خَرى. هل تَعْرف ذلك؟ أنت غير بشريّ. أنتم، المسلمين، لستم إلاّ تجسيدًا للكراهية. تَكْرهون اليهودَ. تَكْرهون المسيحيين. تَكْرهون النساءَ. تَكْرهون المثليّين. تَكْرهون الهندوسَ، البوذيين، السِّيخ، البهائيين، الملحدين، المرتدّين، الهراطقة. أنتم تَكْرهون الجميع. أنتم كلّكم مرضى في عقولكم المنْيِ... توقّفوا عن الكراهية! توقّفوا عن القتل! توقّفوا فحسب!»

وبعد أن حذّرني من أنّني سوف أتعرّض لوحشيّة **حقيقية** إنْ واصلتُ كتاباتي، انتهى سيلُ الكراهية بطرشقةٍ من الشتائم والتهديدات:

«هل فهمتَ؟ إذن، أَيْ (...) فيك. وأَيْ (...) في (...). وأيْ (...) في (...). وأيْ (...) في الإرهابيين!* أخرجْ من الغرب، أيُّها المنافق اللعين. ألا تَعْلم أنّ القرآن يَمْنع المسلمين من العيش في أرضِ الكفّار؟ عُدْ إلى جهنَّم حيثُ تنتمي.»

حسنًا، أنا لستُ محلِّلاً نفسيّاً (ولستُ مُسْلمًا بالمناسبة). ولا أستطيع أن أؤكِّد إنْ كان ينبغي أخذُ هذه الكتابة جدّيّاً، أمْ أنّها محاكاةٌ ساخرةٌ لاواعيةٌ من نوعٍ ما. غير أنّ الكلمات المأخوذةَ مباشرةً من لغة الإعلام الأميركي

١- كما تلقّيتُ أيضًا عدةَ رسائل دعمٍ وتشجيعٍ من أميركيين سُرّوا لرؤيةِ أحدٍ يُشكّك في ما باتَ - للأسف - «حِكْمةً» معلومةً في الولايات المتحدة في ما يخصّ الحربَ على «الإرهاب.» وتلقيتُ رسائلَ دعمٍ وتشجيعٍ من عربٍ سُرّوا لرؤيةِ عربيٍّ مثلِهم يجرؤ على الجَهْر برأيه.

* - حَذَفْنا - بالاتفاق مع المؤلِّف بل وبرغبةٍ منه - بعضَ الكلمات والشتائم احترامًا للقارئ، وللمُسْلم بشكلٍ خاصّ، لأنّها تُطاولُ أقدسَ أقداسِه. (المترجم)

خطاب المستشرقين الجدد هو الأساس الإيديولوجي الذي ارتكز عليه بوش وبلير لصياغة نظرة عنيفة إلى العالم

والأفلام الأميركية ـ مثل «goddamn» و«sick in the fuchin' head» ـ إنّما هي اقتباساتٌ من تلك اللغة والأفلام أكثر ممّا هي تعبيرٌ عن فكرِ قائلها. وهذا قد يعني أنّ قائلَها يتقيّأ على نحوٍ لاشعوريّ ما سَبَقَ أن سَمِعَه، بدلاً من أن يفكّر به من تلقاء نفسه. إنّه يبدو كما لو أنّ هذه الأفكار جاءت مباشرةً من وسائل الإعلام، فعَبَرَتْ كاتبَ هذه الرسالة، وبلغتْ أصابعَه، ومنها انجدرتْ إلى لوحةِ مفاتيحِ حاسوبِه.

وإذا دَقّقْنا في الرسالة ـ وفي أخواتٍ لها تُتْخِم بريدي الإلكترونيّ ـ فسنجد كلَّ الكليشيهات التي تكرّرتْ إلى ما لا نهاية طوال السنوات الأخيرة من قِبل الإعلام الأميركي والمسؤولين الأميركيين، من قبيل:

أنّ صدّام حسين قَتَلَ مسلمين أكثرَ ممّا فَعَلَ أيُّ إنسانٍ آخر؛ وأنّ الحربَ على العراق تَهْدف إلى إنقاذ المسلمين لا إلى إلحاق الأذى بهم؛ وأنّ رجالَ «نا» ونساءَ «نا» الشجعانَ في العراق يَفْعلون كُلّ ما في وسعهم لتجنُّب إيقاع ضحايا مدنيةٍ (في حين أنّكم أنتم، «المَنايا...» العرب والمسلمين، تَسْتهدفون عمدًا الأبرياءَ وتَقْتلونهم)؛ والأهمّ هو الفكرة الأساسية التالية: أنّ ثمة خَلَلاً في الإسلام ذاته، وأنّ كلّ هذا القتلِ والدمارِ لا يعود إلى أوضاعٍ سياسيةٍ ومادّيةٍ وبشريةٍ ملموسةٍ وإنّما إلى عيوبٍ ثقافيةٍ وحضارية وماورائية متأصّلة!

بُنْية... لا استثناءات

ليتني أستطيع أن أصدِّق أنّ مثلَ هذه الرسائل ليست إلاّ استثناءاتٍ مسلّيةً فحسب، وأنّها لا تمثّل بنيةً ثقافيةً وسياسيةً أوسع. لكنّني أخشى أن تكون **فعلاً** كذلك، وهو ما تؤكّده ـ من بين أمورٍ أخرى ـ الدرجةُ المروِّعةُ من الاتّساق التي يُولِّدها الاقتباسُ اللاوعي من المصادر الرسمية والإعلامية. إنّ هذه البنيةَ الثقافيةَ والسياسيةَ ليست أكثرَ من شكلٍ منبعثٍ من الاستشراق القديم؛ وقد يكون الشكلُ الجديدُ أضيقَ تركيزًا من أشكال الاستشراق السابقة (على اعتبار أنّ «الإسلام،» لا «الشرقَ» عامةً، هو موضوعُ خطاب الاستشراق الجديد)، إلاّ أنّه يتشارك وإيّاها في خصائصَ محدّدةٍ تنتمي إلى تراثٍ أقدمَ بكثير. ولأنّ المسلمين والعربَ عامةً الذين يتوجّهون، وبإنكليزيةٍ واضحةٍ (كتابةً وخطابةً)، إلى الجمهور عينِه الذي يتوجّه إليه المستشرقون الجدُد، لم يتصدّوْا بما يكفي من القوّة والتصميم لهذا الخطاب الجديد، فقد اندمج هذا الأخيرُ في أطروحة صاميول هانتنغتون عن «صِدام الحضارات» ليُصبح هو التفسيرَ الرسميَّ «الغربيَّ» المهيمِنَ ـ وربّما الأوحدَ ـ المقبولَ لـ «الحرب» بين الإسلام والغرب.

وبعبارةٍ أخرى، فإنّ هذا الخطاب ليس مجرّدَ أداةٍ نظريةٍ لتبرير الحرب المزعومةِ على «الإرهاب» وإنّما هو الأساسُ الإيديولوجيُّ الذي ارتكز إليه القادة المنتَخَبون في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة لصياغةِ نظرةٍ عنيفةٍ جديدةٍ إلى العالم: نظرةٍ تُمْلي عليهم اليومَ أفعالَهم، بدلاً من العكس.

علينا، كعرب، إذن، أن نَقْتحم الميدانَ معترضين على بنية هذه النظرة وعلى بثّها. ويجب أن يتمّ ذلك في **القلب** من تلك النظرة: في المجال العامّ في الولايات المتحدة. وستكون المهمّةُ سهلةً: ذلك أنّ ما يُقال هناك عن العالم العربي والإسلامي ليس غَلَطًا فحسب، بل هو مبنيٌّ أيضًا على حججٍ صبيانٍ وأبحاثِ هُواةٍ، ليست جديرةً بطالبِ سنة أولى جامعة! إنّ ما يقولونه ترّهات سوف تَنْفرط ما إنْ يتصدّى لها عددٌ أكبرُ منّا، نحن العرب.

والحقّ أنّه، بالنّظر إلى شعبية أطروحة هنتنغتون، فضلاً عن انبعاث الاستشراق حاليّاً بين صفوف صنّاع السياسة الأميركيين، فسيكون حماقةً أن نقلّل من مدى زعم الاستشراق اليوم احتكارَه لمعرفةِ كُلٍّ من الذات «الشرقية» (المرويّة) والذات الغربية (الراوية). المُحْزِنُ أنّ أفضلَ طريقةٍ لتعيين القيمةِ

أفضلُ طريقة لتعيين القيمة الباقية لكتاب إدوارد سعيد، **الاستشراق**، هي البحث عن دور الاستشراق في الخطاب الأميركي المعاصر

الباقيةِ الثابتةِ لكتاب إدوارد سعيد الشهير، **الاستشراق**، قد تكون بتأمُّل بعض الدروس التي لم يتمّ استيعابُها، وذلك بالبحث عن دور المنهج الاستشراقي في الخطاب الثقافي والسياسي المعاصر داخل الولايات المتحدة. ولسوء الحظّ فإنّنا سنكون ههنا إزاء مَعِينٍ هائلٍ، لكنّني لن أركّز في الصفحات التالية إلاّ على نموذج واحد هو: برنارد لويس.

برنارد لويس والمثابرة على الخطإ

فبعد أن دَمَّرَ إدوارد سعيد في الطبعة الأصلية لكتابه **الاستشراق** (١٩٧٨) الأساسَ المعرفيَّ والإيديولوجيّ لأغلبية أعمال لويس، آنَسَ في نفسِه القدرةَ على وصفِ لويس في نهاية طبعة العام ١٩٩٤ من ذلك الكتاب بأنّه «مثابر [على آرائه] بشكلٍ يكاد يكون هزليّاً.» ويحاجج سعيد بأنّ إطنابَ لويس:

«قلّما يَحْجب الدعائمَ الإيديولوجيةَ لموقفه، وقدرتَه الفائقةَ على إساءة فهم كلّ شيءٍ تقريبًا! إنّ هذه هي، بالطبع، الصفاتُ المميّزةُ المألوفةُ لنَسْل الاستشراقيين. بعضُهم امتلَكوا ـ على الأقلّ ـ شجاعةَ أن يكونوا صريحين في تشويههم النشيطِ للشعوب الإسلامية وللشعوب غير الأوروبية الأخرى، غير أنّ لويس ليس مِنْ بينهم. إنّه يواصل تشويهَ الحقيقة، والقيامَ بتناظراتٍ مغلوطة، وغمزاتٍ وتلميحاتٍ ـ وكلُّها وسائلُ يُضيف إليها لويس ذلك الطِّلاءَ [الخادعَ] من السلطة الهادئةِ العليمةِ التي يَفْترض أنّها طريقةُ الباحثين في الكلام.»

والحقّ أنّه يُمْكن فعلاً عَدُّ برنارد لويس «مثابرًا» على آرائه؛ فهو لم يغيِّر أيّاً من حججه الجوهرانيّة [المستندة إلى «حقائقَ» صمّاءَ مُطْلقة] طوال خمسين عامًا. إلاّ أنّ الطبيعة الهزليةَ لمثابرته تلك حَجَبَتْها مأساةٌ صارخةٌ: ذلك أنّ نمط استشراقه أصبح في أعقاب اعتداءات ١١ أيلول عنصرًا مركزيّاً في نظرة الإدارة الأميركية الحالية إلى العالم. فعلى سبيل المثال وَصَفَتْ أميلي يوف في مقالةٍ تمجيديةٍ لعملِ لويس، نشرتْها في مجلة **نيويوركر** في تشرين الثاني ٢٠٠١، كيف وَجَدَ لويس نفسَه فجأةً في قلب إدارةِ بوش يفكّر في كيفية التعامل مع التهديد الجديد القادم من «الشرق،» وتحديدًا من أسامة بن لادن وما يسمّى بالإسلام الجهاديّ. وبعد أن تَصْرف «يوف» انتقاداتِ إدوارد سعيد للويس بشطحةِ قلم، تَزْعم أنّ لويس يقدِّم «للغربيين الحيارى، الذين يحتاجون إلى نظرةٍ متناسقةٍ إلى العالم تفسِّر لهم وَضْعَنا الحالي، مصدرًا واحدًا [سهلاً وشاملاً] لا حاجة بهم إلى غيره.»

فإذا سألْنا البروفسور لويس لماذا «يكْرهوننا» فماذا يجيب؟

في رأيه أنّ «الإسلام» يُشْبه أسطوانةً مشروخةً «عَلَّقتْ» على النغمةِ نفسِها طوال ألفِ عام. ففي مقالٍ كتبه عامَ ١٩٩٠ في مجلة **ذي أتلانتيك** بعنوان «جذور الغضبِ المُسْلم،» ومنه استقى هنتنغتون المفهومَ الذي سيجعله شهيرًا، يقول:

«إنّ [ما يَحْدث] ليس أقلَّ من صِدام حضارات. إنّه ردُّ فعلٍ قد يكون لاعقلانيّاً، لكنّه بالتأكيد تاريخيٌّ صادرٌ عن خصمٍ قديم ضدّ تراثنا اليهو ـ مسيحي، وضدّ حاضرنا العلماني، وضدّ انتشارهما معًا في العالم.»

النقطة المهمة هنا لا تَنْحصر في أنّ العالم الإسلامي مليءٌ بالغضب من علمانية يهو ـ مسيحية (لاحِظوا، بالمناسبة، التناقضَ في هذا المصطلح، ولاحظوا الدمجَ اللاتاريخيَّ المُشبَعَ بالحوافز السياسية ما بين التراثيْن اليهودي والمسيحي اللذيْن اعتُبرا تراثيْ «نا» بالدرجة نفسِها!)، وإنّما أنّ لويس يخوِّل نفسَه أيضًا الحديثَ عن عالمٍ إسلاميٍّ يَفْترض أنّه من طبيعة منسجمةٍ أو واحدةٍ تمامًا، بل وأنّ هذا العالم ـ شأنَ طفلٍ مدلَّلٍ ـ بقي على حاله طوال أكثر من ألفِ عامٍ من المرارة والغيرة الثائرتيْن حيال «النجاح» والتحديث الغربييْن. إنّ لُبَّ المشكلة، بحسب لويس، هو أنّ العالم الإسلامي فَشِلَ في التحديث بسبب وجود شيء **متأصِّلٍ** في

المقابلة السطحية بين «الحضارة» الغربية و«الهمجية» الإسلامية حجبتْ حقيقة أنّ طرفيْن تصرَّفا همجيّاً

الإسلام يجعله عصيّاً على ذلك. وهذا الشيء، بحسب ما يحاجج في مقالةٍ نَشَرَها في مجلة **نيويوركر** لشرح اعتداءات ١١ أيلول، هو «رَفضُ [الإسلام] المطلقُ للتحديث.»

إنّ الثقافة الغربية، على ما يقول لويس في كتابٍ أصدره بعد ١١ أيلول بعنوان **أين الخطأ: الصِّدام بين الإسلام والحداثة في الشرق الأوسط**، تناغميّةٌ (هارمونيّة) وسلاميّةٌ. فهو يؤكّد بثقةٍ:

«أنّ إحدى الخصائص المميّزة للموسيقى الغربية هي تعدُّدُ الأصوات polyphony أو الطبّاق counterpoint. وذلك يبدأ من أبسطِ أشكاله مع الكَوْرس، حيث تؤدّي أصواتٌ منسجمةٌ نوطاتٍ مختلفةً في سلسلةٍ مخطَّطٍ لها سلفًا لتولِّد أثرًا مركّبًا؛ ثم تَدْخل آلةُ الأرغن موازيةً أصابعَ اليديْن العشر، فتَسْلك دروبًا مختلفةً نحو هدفٍ مشترك؛ وأخيرًا تأتي المجموعةُ الموسيقيةُ، من الثنائيّ والثلاثيّ وانتهاءً بالأوركسترا كلِّها. المؤدّون المختلفون يؤدّون معًا، من دفترِ نوطاتٍ مختلفة، ليولِّدوا حصيلةً أعظمَ من مجموع الأجزاء معًا.»

ثم يمضي لويس للتعريف بالفريق الكامل من **الثقافة** الغربية فيقول:

«بقليلٍ من الخيال يستطيع المرءُ أن يَكْشف الخاصيّةَ نفسَها في مظاهر أخرى من الثقافة الغربية ـ في السياسات الديموقراطية وفي الألعاب الجماعية، وجميعُها يتطلّب تعاوُنَ المؤدّين المختلفين، منسجمين إنْ لم يكونوا متوحِّدين، في تأديةِ أجزاءٍ مختلفةٍ بهدف مشترك.»

ويتابع قائلاً:

«بمقدور المرء إنْ يَكْتشف الخاصيّةَ نفسَها في إبداعيْن أدبيّيْن استثنائيّيْن في غربيَّتِهما: الرواية، وإلى حدٍّ أعظم، المسرح...»

ويواصل، من دون أيّ أثر للتواضع، فيقول إنّ الخصائص نفسَها تُمْكن رؤيتُها، «في شكلٍ أوضح، في عمل المؤرّخ، وهي تميِّز بحقٍّ كتابتَه من كتابة المُخْبِر بالأحداث chronicler أو المحلِّل.»

وثمة خاصيّة أخيرةٌ في محاججة لويس الجارفة [دونما أدنى تحوّط]:

«إنّ تعدُّدَ الأصوات، أيّاً كان شكلُ ذلك، يتطلّب تواقتًا دقيقًا. إنّ القدرةَ على التواقت synchronization، أيْ مطابقةِ الأوقات بدقة، هي خاصيّةٌ أساسيةٌ من خصائص الحداثة، وهي من ثم أحدُ متطلّبات التحديث.»

من الجليّ الآن إلى أين يمضي برنارد لويس في خطّ محاججته هذا. إنّ المسلمين والعرب، في رأيه، عاجزون عن معرفة الزمن، أو عاجزون على الأقلّ عن أداءِ أيِّ أمرٍ بشكلٍ متواقتٍ وفي أوانه (واضحٌ أنّ لويس نسي أنّ اعتداءات ١١ أيلول نفسَها كشفتْ عن «باليه» بالغة التنسيق من القتل والتدمير)؛ وموسيقاهم متنافرةُ الأنغام لا منسجمتُها؛ وتأريخاتُهم في الحقيقة مجرّدُ إخبارٍ بالأحداث لا غير؛ أما رواياتُهم فربّما لا يَمْلكون أيّاً منها؛ وأما شِعرُهم، ودينُهم، وقيمُهم، وكلُّ ثقافتهم باختصار، فهي ـ بشكلٍ جوهريّ ومتأصّلٍ ـ غيرُ متناغمةٍ، وغيرُ ديموقراطية، وغيرُ حديثة، بل ومعاديةٌ للحداثة!

غنيٌّ عن القول إنّ كلّ مَنْ يَمْلك ولو ذرّةً من المعرفة بالثقافة الأوروبية والأميركية سيَرى أنّ احتفاءَ لويس الفظَّ بالتفوُّق المتأصّل للثقافة الغربية لا يستطيع أن يأخذَ في الاعتبار أعمالَ ويليام بلايْك، أوْ تي. أسْ. أليوت، أو عَزْرا پاوند، أو إميلي ديكِنسون، أو والتْ ويتمان، بل والشِّعرَ عامةً، ولا حتى سونيتات الحبّ أو القصائدَ الخُماسيّة.[1] بل إنّ ذلك الاحتفاء، إنْ كان لنا أن ننتقل إلى حقولٍ إبداعيةٍ أخرى، لا يأخذ في الاعتبار فنَّ پابلو پيكاسو، أو قنسنت فان غوخ، أو إدوارد مونش؛ ولا موسيقى آرنولد

١ ـ قصائد تَتْبع أبياتُها الأولى والثانيةُ والخامسةُ قافيةً واحدةً، ويَتْبع البيتان الثالثُ والرابعُ قافيةً واحدةً أخرى. (المترجم)

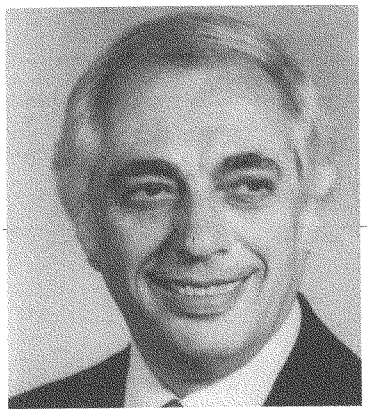

يرى برنارد لويس أنّ ثقافة العرب والمسلمين غير متناغمة وغير ديموقراطية وغير حديثة، خلافًا للثقافة الغربية!

شوينبرغ أو إيغور ستراڤينسكي، ناهيكَ عن موسيقى جون كولترايْن أو أورنَتّ كولمان. دَعْ عنك أيضًا أنّ روايات فرانتز كافكا وجايْمس جويْس ودايڤيد جونز وجوزيف كونراد وڤرجينيا وولْف وتوماس هاردي وهيرمان ملْڤِلْ وتوماس پينشون وجان جينيه، بل وأحيانًا كثيرةً روايات تشارلز ديكنز نفسِهِ (مثلاً: **بيت كئيب**، كي لا نَذْكر **أدْوِنْ دروود**) أو ويليام غودوِنْ (**كالِه ويليامز**) أو معظم أعمال روائييّ القرن الثامن عشر العظام (فيلدينغ، سويفت، دفو)، لا يَنْطبق عليها وصفُ لويس.

غير أنّ النقطة الهامة ليست أنّ الثقافة الغربية المتناغمة (الهارمونية)، بحسب تعريف لويس، بدأتْ ـ هذا إنْ وُجِدَتْ أصلاً ـ بعد عصر الرومانطيقية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وتشظّتْ في اليومِ الأولِ من معركة سومّ عامَ ١٩١٦ (بل ربّما في معركة غتيسبرغ قبل ذلك بخمسة عقود)، مع أنّ أماراتِ الغروبِ الوشيك كان يُمْكن رؤيتُها في أعمال هاردي وكونراد ووِلْز قبل ذلك بأعوام. الأحْرى أنّ النقطة الهامة هنا هي أنّ اعتبار لويس الثقافةَ الإسلاميةَ مَعيبةً بشكلٍ قاتل لا رادَّ له إنّما هو في مستوى توصيفه الأحمق لما يُسمّى بـ «الثقافة الغربية.»

ذلك أنّ ما يتخلّل مجملَ أعمال لويس هو احتفاءٌ فجٌّ بثقافةٍ غربيةٍ يُفْترض أنّها أنْتجتْ ـ بسببٍ من طبيعتها الأصلية ذاتها ـ الحريةَ والديموقراطيةَ وحقوقَ النساءِ والحداثةَ والسوقَ الحرّةَ. فكأنّ هذه جميعَها حَصَلَتْ من تلقاءِ ذاتها، من غير جهدٍ ولا نضال؛ أو كأنّ الإمبرياليةَ والعبوديةَ وحركاتِ التهجير السكاني القَسْريةَ والإبادةَ الجماعية ليست إلاّ انحرافاتٍ واستثناءاتٍ، لا أمورًا صَنَعَتْ هي **نفسُها** الغربَ الحديثَ أصلاً!

وما يتخلّل أعمالَ لويس أيضًا هو مقابلةٌ مبتَسرةٌ اختزاليةٌ: ما بين تلك الثقافة الغربية، وشرقٍ مسلمٍ يُفترض أنّه ـ بسبب من طبيعته الأصليّة ذاتها ـ غيرُ حرٍّ، وغيرُ ديموقراطي، وغيرُ حديث!

ولكنْ على الرغم من أنّ روايةَ لويس الساذجةَ تلك للصِّدام المزعوم بين الحضارات مليئةٌ بالعيوب، فإنّها هي التي تعرِّف اليومَ اللُّبَّ الإيديولوجيَّ للسياسة الخارجية التدخُّلية الأميركية. «سَمِّها عقيدةَ لويس،» كَتب أحدُ صحفيِّي **وولْ ستريتْ جورنال**، وتابع يقول:

«إنّ تشريحَ السيِّد لويس لِمَرَض العالم الإسلامي، ودعوتَه إلى اجتياحٍ عسكريٍّ أميركيٍّ لزرع الديموقراطية في الشرق الأوسط، لم يُناقَشا قطُّ في الكونغرس ولم يُقَرّا من قِبل أيّ مرسومٍ رئاسيّ. ومع ذلك، فإنّهما قد ساعدا في تعيين أجرا تحوُّلٍ في السياسة الخارجية الأميركية منذ خمسين عامًا.»

وبعيْد أحداث ١١ أيلول ظَهَرَ لويس على شاشة التلفزيون فقال:

«إنّ السؤال الذي يَطْرحه الناسُ [في الغرب] هو: لماذا يَكْرهوننا؟ لكنّ هذا هو السؤال الغَلَط. ذلك أنّهم، بمعنًى ما، يَكْرهوننا منذ قرون. وإنّه لمنَ الطبيعي جدّاً أن يكرهونا. فثمة تلك الخصومةُ التي تعود إلى آلاف السنين بين ديانتيْن كونيتيْن، تبدو إحداهما ـ الديانةُ الغلطُ من وجهةِ نظرهم ـ رابحةً الآن. وبشكلٍ عامّ، لا يُمْكنكَ أن تكون غنيّاً، وقويّاً، وناجحًا، ومحبوبًا في الوقت نفسه، وبخاصةٍ من طرفِ مَنْ ليسوا أغنياءَ، ولا أقوياءَ، ولا ناجحين. إذن، الكراهية أمرٌ يكاد يكون بدهيّاً. السؤال الذي يجب أن نَطْرحه هو: كيف لا يَحْترموننا ولا يخافوننا؟!»

جرى ذلك بُعيْدَ دعوةِ المستشار الرئاسي كارل روڤ للرجل الثمانينيّ برنارد لويس إلى البيت الأبيض من أجل مخاطبة مجلس الأمن القومي. وبحسب تقرير الـ **وول ستريتْ جورنال**، فإنّ لويس:

«سرَدَ الإخفاقاتِ الحديثةَ للمجتمعيْن العربي والإسلامي، وحاجَجَ بأنّ نزعةَ معاداة الأميركان قد نَبَعَتْ من عجز هذيْن المجتمعيْن، لا من عجزِ أميركا. كما أنّ السيد لويس التقى بصورةٍ

> **الأمرُ الأكثر إحزانًا أنّه ليس ثمة حركة علنيةٌ قويّةٌ لفضح استشراقيةِ لويس وهجرانها**

شخصيةٍ مستشارةَ السيّد بوش للأمن القومي، كوندوليسّا رايس. [وبعيْد ذلك شُـوهد السـيّـد بوش] يَحْـمل من بين خُلاصات الأخبار المقدَّمةِ إليه مقالاً بقلم السيد لويس، عليه تعليقاتٌ وخطوطٌ.»

ويقـول الموظّفُ السـابقُ في البـيت الأبيض دايفـيد فْـرَمْ إنّ «برنارد يقـدِّم تفسـيرًا قـويّاً جـدّاً لأسـباب حصـول أحداث ١١ أيلول؛ وما إنْ تَفْـهمه حتى تَعْرضَ السياسةُ لك نفسَها من تلقاء ذاتهـا.» وبحسب ريتشارد پيرل، فـإنّ الجـديث إلى لويس «هو كـالذهاب إلى دَلْفي لمشاهدةِ وسيطِ الوحي (oracle) [عند الإغريق].» ويقول پول وولفويتز إنّ بُرنارد لويس علَّمنا «كيف نَفْهم التاريخَ المركّبَ والهـامّ للشـرق الأوسط، واستَخْدَمَه ليقودَنا إلى أين نذهب بعد ذلك من أجل بناءِ عالمٍ أفضلَ للأجيالِ القادمة.»

باحثان آخران: پاغدنْ، وعجمي

المحزن أنّنا نَعْلم كلُّنا اليومَ إلامَ قادت «عقيدةُ لويس» الشعبَ الأميركيّ، وإلامَ قـادت ـ بصورةٍ أكثرَ مباشرةً وعنفًا بالطبع ـ شعبيْ أفغانستان والعراق.

والأمرُ الأكثرُ إحزانًا أنّنا نَعْلم أيضًا أنّه ليس ثمـة، حـتى هذه اللحظة، حـركـةٌ علنيـةٌ قويةٌ لفَضْح استشراقية لويس كمـا هي، ناهيك عن هجرانها. وأحدُ أسـباب ذلك أنّ لويس ليس الشـخصَ الأوحدَ الذي يَجْهر بالتنافر المتأصِّل بين «الإسلام» و«الغرب،» وإنّما تحكَّمتْ هذه النظريةُ ببـعض الباحـثين المتـميِّـزين أنفسـهم. فـهـا هو المؤرِّخ البـريطاني البارز أنثوني پاغدنْ ـ وهو زميلي في UCLA (جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلس) ـ يَكْتب في خـاتمة كِـتـابه **الشـعـوب والإمـبـراطوريات**، الذي احتفى به النقّادُ كثيرًا، ما يلي:

«إنّ الصراع بين الإسلام والغرب... لم يَعُد اليومَ صراعًا بين دينيْن متنافسيْن، أو بين شعبيْن يَنْظر كلٌّ منهما إلى الآخر وكـأنّه ضـالٌّ أو زائغٌ [عن الحقّ]، مع أنّهـمـا كليْـهمـا ينتمـيـان إلى عـوالم باستطاعة كلٍّ منهما فهمُها.»

بل الأحرى، على ما يَسْتنتج پاغدن:

«أنّ الصراع هو بين عـالميْن لا يستطيع الواحدُ منهما فهمَ الآخر. في العالم الأول ثمة الجهاديون المسلمـون الذين مايزالون متشبّثين بمعتقداتٍ تَنْسجم إلى حدٍّ قريبٍ جداً مع معتقداتٍ يُمْكن أن يكون جُنْدُ صلاح الدين قد تبنَّوْها... وفي العالم الثاني هناك الغربُ المعصرَن (الذي يضمّ اليوم معظمَ جنوب شرق آسيا)، وغالبيتُه الساحقة علمانيةٌ في ما يخصّ جميعَ أمور السياسة بل وجميعَ مناحي الحياة الاجتماعية والمحلية تقريبًا. وبين هذيْن العالميْن، فإنّه من المستحيل عملياً قيامُ أيُّ حوارٍ حول أيّ أمرٍ ذي دلالة حقيقية. قد يكون هذان العـالمان قـادريْن على أن يتـحـمّل واحدُهمـا الآخر حين لا يتصارعان، لكنّهما لن يستطيعا أبدًا أن يَنْهضما معًا. لقد نجحتْ كلُّ الأديان العظيمة الأخرى في العالم ـ الهندوسية والبوذية والطاوية والكونفوشستية ـ في تكييف نفسـهـا مع الحـداثة، بل استطاعت أحيانًا أن تُسرِّع من تقدُّم هذه الحداثة. غيـر أنّ الإسـلام، خـلافًا لذلك، على الأقل في صيغته المهيمنة، يبقى معاديًا بحزمٍ للحداثة.»

وهناك آراءٌ مماثلةٌ كثيرة. فها هو فؤاد عجمي يُعلن ما يلي:

«إنّ حَمْل الحداثة إلى مَنْ يريدونها ولكنّهم يَشْجبونها في الوقت نفسه، وإنّ تمثيلَ وتجسيدَ كثيرٍ ممّا يتُوق العالَمُ إليه ويخافه معًا، ذلكم هو العبءُ [الملقَى على كاهل] أميركا... اليوم تَحْمل الولاياتُ المتحدةُ القلقَ العصـريَّ [الحداثيَّ] إلى الأماكن العتيقة، إلى الشـرق وإلى المناطق الوسطى في أوروبا.»

ويُضيف:

«**نحن** توّاقـون إلى الخروج بسـلامٍ من هذه الحملة في العـراق، وسيؤشّـر انتقـالُ السلطة [إلى العراقيين] على بداية عـلاقـةٍ جـديدةٍ بين العـراقيين ومحـرِّريهم الأميركيين... [وإنْ كان] سيكون سهلاً وأكثرَ إراحةً لنا لو لم

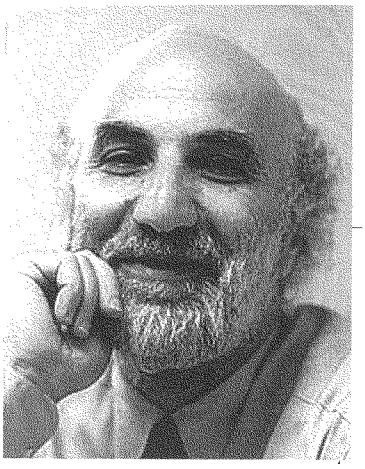

يَجْهد فؤاد عجمي (اللبناني) من أجل جعل قرّائه يَعْلمون أنّه واحد منّا [نحن الأميركيين]

نسترجع **نحن** حريّتَهم **هُمْ**، لقاءَ خسائرَ أميركيةٍ تفتّت القلوبَ.»

إنّ فؤاد عجمي، بتكراره عباراتٍ من قبيل «سلطتُ **نا**،» «رسالتُ **نا**،» «زمنُ **نا**،» «إدارتُ **نا**،» يَجْهد من أجل جعل قرّائه وجمهور الإعلاميين يَعْلمون أنّه هو أيضًا واحدٌ «مِـ **نّا**.»

مصدر الاكتشافات الجنسية: مستشرق إسرائيلي!

قد يكون من الأفضل إنهاءُ هذا العرض المختصر للاستشراق المنبعث حديثًا بذكرٍ مقتضبٍ لفضيحة سجن أبو غريب قرب بغداد. فبحسب سيْمور هيرش، «اكتشَفَ» المحقّقون في الجيش الأميركي أنّ الرجال العرب لديهم عقدةٌ خاصةٌ تجاه الجنس، وأنّهم حسّاسون بنوع خاصّ حيال الإهانة الجنسية، كأنْ يُكوَّموا ـ الواحدُ فوق الآخر ـ عراةً على شكلِ هرم! لكنْ لا هيرش ولا الصحفيون الذين علّقوا على هذه الحكاية كلّفوا أنفسَهم التساؤلَ عمّا إذا كان الرجالُ الألمان، مثلاً، أو الفرنسيون أو الأميركيون يستمتعون بأن يكوَّموا بعضُهم فوق بعض على شكل أهرامات، أو ما إذا كان ذلك شيئًا لا يُزعج إلاّ الرجالَ العربَ فقط!

على كلّ حال، اتّضح أنّ مصدرَ هذا «الاكتشاف» كتابٌ بعنوان **العقل العربي**، نَشَرَه في الأصل المستشرقُ الإسرائيلي رافاييل پاتاي (رافئيل بطّي) في السبعينيات، وإنْ أعيدتْ طباعتُه بشكلٍ متواصل منذ ذلك الحين، بما في ذلك طبعةٌ صَدَرتْ عام ٢٠٠٢، وهي من القراءات المقرَّرة على الضبّاط الأميركيين المتوجّهين إلى العراق!

كما أنّ «تبصُّرات» پاتاي النفّاذة تتضمّن الزعمَ بأنّ الأمّهات العربيات كلّهنّ يُهْمِلن طفلاتِهنّ (الإناث) ولكنّهن يُداعبن أعضاءَ أطفالهنّ (الذكور) (ص ٣٨)؛ وأنّ اللغة العربية لغةٌ «غيرُ منطقية» كما هو معروف (ص ٤٧)، وميّالةٌ إلى «التضخيم والمبالغة في التأكيد» (ص ٥٥)؛ وأنّ العرب مهووسون إلى حدٍّ مَرَضيّ باحترام الذات (ص ١٠٢)؛ وأنّ ثمة «انشغالاً طاغيًا بالجنس في العقل العربي» (ص ١٣٣)، وهو ما يفسِّر «الأعراضَ المتزامنةَ للكبت والإحباط والعدوانية في الشخصية العربية» (ص ١٣٧)؛ وأنّ «فقدانَ السيطرة على النفس والانفجاراتِ الانفعاليةَ» أمورٌ طبيعيةٌ عند العرب «لأنّ المرء في رؤية العربي إلى الطبيعة الإنسانية يُفترض به أن يكون قادرًا على الاحتفاظ بسيطرته المتواصلة على نفسه» (ص ١٦٩)؛ ولذلك ـ أخيرًا ـ فإنّ «العدوانيةَ العربيةَ ـ متى استُثيرتْ ـ تنفِّسُ عن ذاتها عشوائيّاً ضدّ كلّ الغرباء» (ص ١٧١).

وما نَسْتنتجه من ذلك، على ما يَشْرح پاتاي، «هو صورةُ إنسانٍ يَنْفض عنه، كثيرًا وبسرعة، قيودَ الانضباط، ويَغْلب عليه ـ خاصةً في الحالات الجماهيرية ـ أن يلجأ إلى الهيجان [أو الثورة].»

اللافت أنّ كلّ هذه الأقوال تَصْدر عن رجل يُعلن في الجملة الأولى من كتابه «أنّ عليه أن يَعْترف، حين يتعلّق الأمرُ بالعرب، بأنّه يعاني من رومنطيقيةٍ لا شفاءَ لها؛ لا، بل أكثر من ذلك، إنّه يعاني من تعلّقٍ مدى الحياة بـ Araby.»

كما قلتُ، هذا الكتابُ مقرَّر في «كلية أركان الجيش الأميركي.» ثم إنّه تلقّى تقريظًا من عدد من الكتّاب الأميركيين حتى مع حلول عام ٢٠٠٢. وفي هذا الصّدد يكتب أحدُ هؤلاء لمعهد الكونغرس في واشنطن ما يلي:

«إنّ كتاب **العقل العربي** ليس موجّهًا إلى مَنْ يريدون تلخيصًا قصيرًا عن الشرق الأوسط. أما مَنْ يريدون فهمًا عميقًا ورفيعًا... لشعبٍ وثقافةٍ يؤثّران في مستقبل العالم، فعليهم ألاّ يلتفتوا إلاّ إلى **العقل العربي**.»

ويَعْترف كَنْ رينغِلْ في **الواشنطن پوست** (تشرين الأول ٢٠٠١) بأنّ كتاب پاتاي نُشِر أولاً عام ١٩٧٣ لكنّ «حقائقَه تبدو حيّةً إلى ما بعد ذلك التاريخ.»

سؤالٌ برسم پاتاي وهيرش:
هل الرجال العرب وحدهم
يحسّون بالإهانة الجنسيّة؟

خاتمة: دور المثقفين العرب

إنّ الأفكار التي تَحْكم كلّ عصرٍ هي أفكارُ الطبقة الحاكمة. هذا ما قاله ماركس في يوم من الأيام. فإذا أصبحتْ أعمالُ لويس وپاتاي قراءاتٍ أساسيةً مقرَّرةً لأعلى المستويات داخل الحكومة والجيش الأميركيّيْن، فعلينا ألاّ نفاجَأَ بأنّ أفكارَهما، بعد أن خَضَعتْ لتبسيطٍ وتخفيفٍ زادا من بساطتها وخفّتها الأصليتيْن، تسرّبتْ عبر وسائل الإعلام إلى الناس.

غير أنّ المجالَ العامّ هو - أو يَجْدر أن يكون - مسرحًا لما سمّاه ويليام بلايْك ذاتَ يومٍ بالحرب الثقافية. فإذا استطاع أشخاصٌ أمثال لويس وپاتاي وعجمي (وكلُّهم، بالمناسبة، يَخْدمون مصالحَ إسرائيل) إقناعَ جمهورهم بأنّ ما يقولونه صحيح، فذلك يعود فقط إلى أنّه لم يتمّ التصدّي لهم، بما يكفي، من طَرَف الأصوات العربية الأصيلة. وبالتأكيد، فإنّ واحدةً من أكثر المهامّ الملحّة التي ينبغي علينا كمثقفين عرب أن نواجهَها هي الحاجةُ إلى التضلّع في الثقافة الأوروبية والأميركية - وفي اللغة الإنكليزية - لكي نتمكّنَ من المشاركة في الحرب الثقافية ضدّ أعدائنا وفضحِهم على حقيقتهم.

وإلى أن نَفْعل ذلك فإنّ أعداءنا سيواصلون تصويرَنا كما يشاءون، ويجب ألاّ نلومَ في هذا الحال إلاّ أنفسنا!

لوس آنجلس

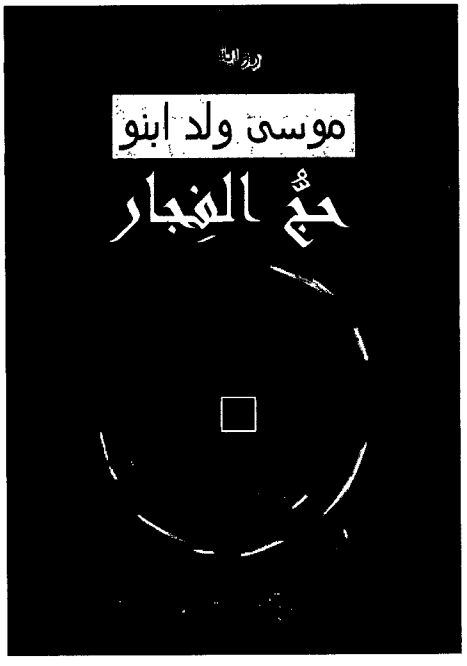

هذه الرواية التي تدور أحداثها في موسم الحجّ من سنة ثلاث وخمسين بعد عام الفيل هي الأولى من ثلاثية تتناول موضوع الحج عبر العصور، بدءاً من العصر الجاهلي وحتى سنة ثلاث وخمسين بعد الحادي عشر من سبتمبر. ومن بين شخوص هذا الجزء الأول الشاعر لبيد والمومس مَهْدَد وهاذر شيطان النابغة وأسماء العدوية، أجمل امرأة في العالم...

د. موسى ولد ابنو من مواليد موريتانيا عام ١٩٥٦ حاصل على دكتوراه فلسفة من جامعة السوربون وأستاذ فلسفة في جامعة نواكشوط. صدرت له روايتان عن دار الآداب: مدينة الرياح، والحب المستحيل.